النظرية الحديثة
فى تفسير الاحلام

للأستاذ عبد العزيز جادو

إن آداب كل أمة توضح بجلاء رغبة الرجل الملحّة ، المستديمة ، فى تعليق بعض الأهمية على أحلامه وإلباسها بعض المعانى . فمن فجر التاريخ إلى بداية هذا القرن كانت الأحلام تعتبر فى بعض الأحيان كأصوات للالهية الباطنية ، وجولات للذات النجومية ، وزيارات للروح ، وتنبؤات بالمستقبل ، أو نتيجة اضطرابات جسمية باطنية .

وفى عام ١٩٠٠ حوّل الأستاذ سيجموند فرويد ما اعتبره خرافات وأوهاماً خاطئة فى تعليل الأحلام إلى « دراسة علمية » . فلقد وجد ، ككل العلماء ، أن الالتجاء إلى الحدس والتخمين عمل محفوف بالمكاره .

وإن رجالاً من أمثال جوليان هكسلى ، وه . ج . ويلز ، وها فلوك إليس ، ليدفعون إتاوة لفرويد . كما أن العالم أجمع يقدره حق قدره ويعده من أنبغ النابغين فى جيله .

أهرامها ومبهماته :

لا يخفى أن لكل قطعة من العملة وجهين ، لا نرى منهما إذا وضعت القطعة على نضد إلا الجانب الفوق . كذلك لكل حلم وجهان ؛ فالحلم الذى نعيه عند الاستيقاظ هو الرأس أو الوجه ، ويعرف فى الاصطلاح الفنى بالمحتوى الظاهر ؛ أما الحلم الحقيق ، الذى لا يفسره التحليل أو يوضحه فهو « الخافى » أو المحتوى الباطن . ومشكلة تحليل الحلم هى أن نرجع إلى الحلم الحقيق ، أى المادة المستترة .

ولكن لم هذه الضرورة لحلم حقيق وحلم غير حقيق ؟

إن حلماً كهذا الذى تذكره عند استيقاظك من النوم إن هو إلا شىء باطل ملفق ، وتمويه مطبق . وإنه لوسيلة لإخفاء القصة الحقيقية . قد تسأل : « لم هذا الإخفاء ؟ » ونحن لا يسعنا إلا أن ندلى برأينا كاشفين عن السر القناع .

إن للعقل « جزئين » كما هو معروف ؛ الواعى والباطن . الأول كتاب قانون للجماعة ، وهكذا نسميه ، لأنه يحوى جميع النواهى وكل الأوامر ، كما يحتوى على قواعد حسن السير والسلوك . وإنه بمثابة مجموع أو حاصل لمبلغ تربيتنا وتهذيبنا من عهد الطفولة وما بعدها .

أما العقل الباطن فإنه يحتوى على نواة الرغبة . ويتبع نظام حفظ الأوراق بالترتيب مع الذات الغريزية ، على نسق فهرس ، يشتمل على فكر وتصورات فى غاية الهمجية — تصورات تدل على الطبيعة الفجة « الخام » .

ويمكنك أن ترى بين العقلين خلافاً جوهرياً ؛ أحدهما يريد ، والآخر لا يريد . . أحدهما ذو الطبيعة الهمجية يلتقى بحاجيات الطبيعة ؛ والآخر إنسان متمدن يوفق بين طلبات المدنية .

ومن تعارض هذين العقلين تنشأ الأحلام .

ساق العمل ، وتنزلوا للميدان ؛ وتعلموا حب المال ، والرغبة فى الأسفار ، وتتقنوا فن الاقتصاد ، وصيد الدراهم ، والتعاون على الكسب . بذلك تخلص إخوانكم الشاميون من سيطرة الأجانب ، وانقذوا بلادهم منهم ، ثم ذهبوا فغزوهم فى بلادهم ، وانتزعوا أموالهم من أكفهم ، وزاحموهم ، فى مانشستر ونيويورك وبونس ايرس والكونغو وبومباى وطوكيو ، وكل بلد فى الدنيا ، ما خلت مدينة من تجار الشام .

إن بعض العراقيين يقولون مازحين : إن الشاميين يهود العرب !

يهود العرب .. طيب والله ! .. وهل نقاوم اليهود إلا بهذا ؟ بارك الله فى تجار الشام — وإن كنت (أشهد الله) أكرههم ، لما رأيت من طمعهم وجشع نفوسهم . وأتمنى أن أشد أصابعى على أغنياء الحرب منهم ، ولكن الحق أحق أن يقال ، ولا تنجح أمة إلا بأمثال هؤلاء التجار

هؤلاء الذين يشيدون مجدها ، ويثبتون بناءها ، ويحفظون مالها . فمتى يكون المصريون مثل هؤلاء ؟ ومتى أجىء مصر ، فلا أرى فيها إلا لوحة عربية ، باسم عربى ، على مؤسسة عربية ؟!

يا مصر ، هذا هو الطريق ! وهذا والله كلام صديق !

(القاهرة) على الطنطاوى

الحوار الداخلي :

قد يتوقع المرء أن يؤثر الحوار الداخلي في الفرد فيوقظه ، ولكن آلية الحلم جعلت هذا الجدال الداخلي محرفاً في معناه ، ومشوهاً في شكله ، لكي يكون النوم باقياً مستمراً ومحفوظاً . والحلم إذ نذكره — أي في حالة المحتوى الظاهر — إنما يستخدم غرضاً واحداً ، هو قيامه بمثابة حارس للنوم . وإنه ليلجأ إلى أنواع التزويق والخداع لكي يصادف هذا الغرض .

والمحتوى الكامن أو الباطن للحلم ، أي الحلم الحقيقي ، يخدم غاية تخالف تمام الاختلاف ، مما سبق . فهو يرضي رغبة عقلية داخلية ، تحرك عاطفة خاصة وتحثها لإنشاء تحوّل كيمي وفزيق ، أو أصوات متعددة ذات وتيرة واحدة منسجمة أي إنها تسبب قيام غدد معينة بالإفراز وتحدث تغييرات كيمائية مختلفة ، أكثر مما لو كان الشخص قد تناول علاجاً منشطاً عند النوم . وإلى هذا يرجع السبب في شعور المرء بالراحة عند استيقاظه .

الآن وقد كونا فكرة صحيحة بل صورة ذهنية حية لهذين العقلين المتناقضين ، نستعرضهما وكأنها غرفتان متلاصقتان ونتخيل حارساً يقف عند المدخل كديدبان ولنسمه « الرقيب » . وهذا مهمته كمهمة الرقباء أثناء الحرب سواء بسواء — يصرحون بنشر أخبار معينة ويمنعون من النشر أخرى . وهذا الرقيب هو الذي جعل للحلم وجهين بطائفة من الحيل كالرمزية ، والتحريف ، والتكاثف ، والعواطف المزيفة ، والاستبدال . وكل هذه ، بطبيعة الحال ، معلومات فنية عالية . وهي مع ذلك يمكن شرحها بسهولة .

إن المرء لفي حاجة ماسة للتعرف على كيفية عمل الرقيب ، وإنا لذلك سنمضي في متابعة الطرائق المختلفة ، ونعرض أحلاماً رمزية بطريقة التصوير .

الرموز :

الرمز عبارة عن علامة تعني شيئاً ما . فالدوائر الثلاث المتداخلة معناها التضامن أو التعاون . والبولدوج رمز للمتانة أو التشبث . كما أن الأسد رمز للشجاعة والاقدام . والثعلب رمز للمكر والدهاء . وهذا قليل من كثير لا حصر له ولا عد . وثمة شيء غريب آخر عن الرموز ، هو أنها تحرك العواطف وتستفز الشعور على الفور وبأسرع ما يمكن . يقول الشاعر أو الناثر أو الخطيب « زمجر كالأسد » . كم يكون وقع هذه الجملة في السامع ! وكم تكون حيويتها وتأثيرها ! أليست أشد وقعاً في النفس مما لو قال « زمجر عالياً ! » ... ومن ذا الذي لا تهزه الأريحية ولا تأخذه النخوة عند سماع النشيد القومي أو السلام الملكي ! ..

ثم أليس هناك آلاف ممن جندوا أنفسهم واستعدوا للدخول في غمار المهالك ، واستنفاد آخر قطرة من دمائهم من أجل خفوق قطعة من قماش مصبوغة باللون الأخضر ومرسوم عليها هلال وثلاثة أنجم ؟ لا لأنها تقوم على نصرة المملكة المصرية فحسب ، ولكن لأنها رمز يحرك العواطف ويذكيها حماسة .

وعلى ذلك يمكننا أن نرى أن الرمز ليس إلا مؤثراً آلياً أو ميكانيكياً في الأحلام لا يقدّر بثمن ، لأنه يحرك العاطفة لسعادة جسمية .

أما رموز الأحلام فهي غالباً ما تكون سرية (أو خاصة بالحالم ذاته) ومن ثم فإنك ، أنت نفسك ، عندما تستيقظ من النوم ، ولا تفهم شيئاً من معاني ما رأيت في حلمك .

دراسة الأحلام :

إن الرموز التي أسلفنا القول فيها هي في الواقع معروفة وليس هناك من يجهلها . ولكن لرموز الأحلام ميزة الخصوصية والسرية . فمن ذا الذي يعرف تلك الرموز ؟

الخبرة في تحليل الحلم تعرفنا بالقليل من معاني الرموز ، ولكن أفضل طريقة لدراستها هي دراسة الحالم . والطريقة المتبعة في ذلك من السهولة بمكان ، وهي أن تستقصي ما يذكرك بالأشياء . مثال ذلك أني حلمت بامرأة ذات أسمال بالية تقوم بعمل أشياء مختلفة ، فتساءلت عما يذكرنيه امرأة ذات ثوب خلق . وذكرت أني منذ سنين قليلة كنت في حفلة رقص تنكرية حيث كانت فتاة ترتدي ثوباً خلقاً مماثلة الفاقة . فكان من الواضح إذن أن الفتاة التي رأيتها في الحلم تعني الفاقة . بيد أني لم أحلم بالفاقة ، لأن هذا قد لا أستسيغه فيزعجني ويوقظني من النوم . فيتكرم « الرقيب » مشكوراً ويريني تلك الفتاة الجميلة ، الرشيقة ، بهيئة مرضية ، ليستدرجني في دروبه كيف شاء له الهوى تاركا إياي أغط في نوم عميق مريح

ولنأت بحلم رمزي بسيط :

كان الحالم طفلا في الثامنة من عمره . رأى أن كلباً وقطاً يتشاجران . كان الكلب أسمر اللون ، وكان القط أحمر اللون . ورأى فجأة أن الكلب والقط قد دخل كلاهما في الآخر وتكون منهما حيوان فرد فيه شبه من القط ، وفيه شبه من الكلب ، فاستيقظ من نومه باسماً . ولما سئل عن أقرب شجار شاهده أمامه كانت النتيجة أن أمه وأباه كانا يتشاجران دائماً شجار الكلاب والقطط . وفي ذلك اليوم على الأخص كان عراكهما فظيعاً . وكانت هذه آخر معركة رآها قبل أن يرى في الحلم كلباً وقطاً يتشاجران ...

لقد كان أبوه أسمر اللون ، وكانت أمه شقراء . فمن الواضح أن الكلب كان أباه ، وكانت القطة أمه . ولقد كان انزعاجه من رؤية حيوانين يتشاجران لا يقاس بجانب انزعاجه من عراك والديه . إنه يريد أن يقف عراكهما عند حد ، وأن يتصافيا ، لأنه تصورهما وقد امتزجا معاً وصارا وحدة . وإن هذا ليسره فيستيقظ باسماً . وهكذا نرى أن تفسير الحلم بسيط غاية البساطة . ولكني أرجو أن تدرك تماماً أيها القارىء العزيز أن الحلم لا يوضح ولا يشير إلى ما سوف يفعله أناسه أو ما قد يفعلونه ، ولكنه يبين ما يفكر الطفل فيه . بيد أن هناك ما هو جدير بكل اعتبار ألا وهو أنه ما من حلم إلا ويبين اتجاه الحالم نفسه لا اتجاه أحد غيره . وعلى كل من اشتغل بدراسة الأحلام أن يذكر أن هذه النقطة من الأهمية بمكان .

وبما أنه لا يوجد للان أي حلم يبين بوضوح لأي شخص تركيباً آليا ، بل تراكيب من مختلف الأساليب ، فإننا نخطو إلى أحلام أكثر تعقيداً . وقبل أن نقدم على هذا ، علينا أن نتعرف السبب الذي يجعل الأحلام معقدة أو فيها شيء من التعقيد . ذلك لأنها ذات تحريم جنسي .

التحريمات الجنسية :

لقد هاجم رجال الدين فرويد بسبب اعتماده على الجنس . فرد عليهم ما زحاً ، ولكنه أظهر الناس على بعض الحقائق السافرة وأظهر بالتحليل تسلط الجنس على النفس الداخلية ، وأزال كثيراً من أوهام المتصوفين .

على أن فرويد لم يقل أن كل الأحلام جنسية ، أو إنها يجب أن تكون جنسية ، وكل ما في الأمر أنه دون في بيانات صحيحة أن السواد الأعظم ذو طبيعة جنسية . وقبلما نحاول تحريم أو نبذ هذه النظرية التي تحاول الكشف عن الطبيعة الجنسية في الناس يستحسن أن نرفع النقاب عن المعلومات الجنسية . ولنكن صرحاء للغاية القصوى بدل أن نخفي أنفسنا على طريقة النعامة ، إذ نضع رؤوسنا في رمال الزمن المرتحل .

إن البيولوجيا تبين بوضوح وجلاء أن هدف الحياة ما هو إلا حفظ الحياة والتكاثر فيها . فبدون النشاط الجنسي ، وبدون الحافز للحياة ، يموت كل شيء ، ولا يبقى شيء .

وإذا كان هذا هو أهم شيء في العالم ، وهو بالفعل كذلك ، فلم ندعي أنه يقوم بدور بسيط تافه لا يعتد به في ذواتنا الفيزيقية ؟

إن الحقائق الجنسية أصعب من أن تواجه في حالة طبيعية . فهي اختباوقاس . ولا داعي لبيان أهمية الجنس ولا للتعريف بأنه أعظم شيء في الحياة ، إذ أن كثيراً من العقول المفكرة قد أقامت البرهان القاطع على أنها نواة كل سلوك .

عبد العزيز عبارو

مجلس مديرية أسيوط

سيحتاج المجلس قريبا إلى كتبة بالمعاهد الأولية في الدرجة التاسعة بماهية شهرية قدرها خمسة جنيهات .

يشترط في من يتقدم لهذه الوظائف أن يكون حاصلا على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية وألا تقل سنه عن ١٨ سنة ولا تزيد على ٢٥ وتقدم الطلبات على الاستمارة رقم ١٦٧ ع . ح (طلب استخدام) بعنوان حضرة صاحب السعادة رئيس مجلس المديرية باسيوط في ميعاد غايته يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

٨٣٠٤